

مبادئ الوسطية وخصائصها في ضوء القرآن

Principles and Characteristics of Moderation in the Qur'an Perspective

M. Ilham Muchtar, Andi Asdar Yusuf, Mukhlis Bakri, Akbar^{1,2,3,4}

Universitas Muhammadiyah Makassar | ilhammuchtar@unismuh.ac.id | andiasdar@unismuh.ac.id
| mukhlis_plp72@yahoo.com | akbaras@gmail.com

Abstract - Moderation has principles and characteristics that distinguish it from others, because moderation is a cherished rank, expensive. How is it not, and it is the characteristic of this nation, and the focus of its distinction among nations, as God made it one of its characteristics, out of His generosity and bounty (*that is the grace of God that He gives to whomever He wills, and God is gracious* (QS Al-Hadid: 21). Moderation is not confined to one of the particulars, or even to one of the pillars. Rather, it is an integrated comprehensive approach, which is not separated from each other. Islam is all in the middle, and therefore this nation is the nation of the middle. We can derive a specific terminological definition of moderation, that moderation is: the qualifications of the Islamic nation for justice and benevolence to bear witness to the worlds and establish an argument against them. From this point of view, the Noble Qur'an came as a prescriber for the method of moderation in the chapters on worship, belief, judgment and judgment, in the chapter on jihad, enjoining good and forbidding evil, and other chapters and fields. Whoever stops at the issue of exaggeration, estrangement, excessiveness and negligence, realizes that the nation is in dire need of moderation as a savior from this deviation, which has brought calamities and problems to it. There is no doubt that the Noble Qur'an has drawn this approach for us in its various aspects, principles and branches, belief and worship, manners and behaviour, conception and action. The method of moderation came through the Holy Qur'an in several ways, declaring and gesturing, detailed and general, telling and establishing, commanding and forbidding.

Keywords: Principles, Moderation, Characteristics, Qur'an

المخلص - إن للوسطية مبادئ وخصائص تُميّزها عن غيرها ذلك لأن الوسطية مرتبة عزيزة المنال، غالية الثمن. كيف لا وهي سمة هذه الأمة، ومحور تميّزها بين الأمم حيث جعلها الله خاصية من خصائصها، تكرر ما منه فضلا (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد: 21). إن الوسطية ليست محصورة في جزئية من الجزئيات، بل ولا في ركن من الأركان وإنما هي منهج متكامل شامل، لا ينفصل بعضه عن بعض، فالإسلام كله وسط، ولذلك فهذه الأمة هي أمة الوسط. ونستطيع أن نستخلص تعريفاً اصطلاحياً خاصاً للوسطية، بأن الوسطية هي: مؤهل الأمة الإسلامية من العدالة، والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة الحجة عليهم. ومن هذا المنطلق جاء القرآن الكريم مقررًا لمنهج الوسطية في أبواب العبادات، والاعتقاد، والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات. فمن وقف عند مسألة الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط، أدرك أن الأمة بأسمى الحاجة إلى منهج الوسطية منقاداً لها من هذا الانحراف، الذي جرّ عليها المصائب والمشكلات. ولا شك أن القرآن الكريم، قد رسم لنا هذا المنهج في شتى جوانبه، أصولاً وفروعاً، عقيدة وعبادة، خلقاً وسلوكاً، تصوّراً وعملاً. ولقد جاء منهج الوسطية من خلال القرآن الكريم في أساليب عدّة، تصريحاً وإيماءً، مفصلاً ومجملًا، خبراً وإنشاءً، أمراً ونهيًا.

الكلمات المفتاحية: مبادئ، الوسطية، خصائص، القرآن

١. تمهيد

إنّ المتأمل في الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم يرى بؤناً شاسعاً في مشاربها وأهدافها، واختلافاً في منطلقاتها وغاياتها. يرى الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، والإسراف والتقتير، وللأسف أن هذا الواقع على مستوى الأمة عموماً. ففي وسط هذا الواقع المؤلم، والاضطراب المهلك، تشتت الحاجة إلى دلالة الأمة إلى الصراط المستقيم، والمنهج العدل المبين، لإنقاذها من كبوتها، وإيقاظها من رقدتها، وتبصير الدعاة والمصلحين بالمنهج الحق، والطريق البين الواضح: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (الأنعام: 153).

فمن وقف عند مسألة الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط، أدرك أن الأمة بأمرس الحاجة إلى منهج الوسطية منقذاً لها من هذا الانحراف، الذي جرّ عليها المصائب والمشكلات. ولا شك أن القرآن الكريم، قد رسم لنا هذا المنهج في شتى جوانبه، أصولاً وفروعاً، عقيدةً وعبادةً، خلقاً وسلوكاً، تصوّراً وعملاً. ولقد جاء منهج الوسطية من خلال القرآن الكريم في أساليب عدّة، تصريحاً وإيماءً، مفصلاً ومجماً، خبراً وإنشاءً، أمراً ونهيّاً. واقتناعاً بأهمية هذا الموضوع، ومسيب الحاجة إليه، فقد عرّضت على كتابة المقالة المتواضعة تحت الموضوع: مبادئ الوسطية وخصائصها في ضوء القرآن الكريم، وهذا يقتضي أنني لا بد أن أتأمل في كتاب الله، متفكّراً في دلالته، مستوعباً لما كتبه المفسّرون حول تقرير القرآن لمبادئ الوسطية وخصائصها.

٢. حقيقة الوسطية في اللغة والاصطلاح

جاءت كلمة (وسط) في اللغة لعدة معانٍ، ولكنها مُتقاربة في مدلولها عند التأمل في حقيقتها ومآلها. قال ابن فارس: (وسط): الواو والسّين والطّاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والتّصف. ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي.

أ - (وسط) بسكون السّين تكون ظرفاً بمعنى (بين)، قال في لسان العرب: وأمّا الوسط بسكون السّين فهو ظرف لا اسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين)، تقول: جلست وسط القوم، أي: بينهم. (ابن فارس: 7:427)

ب - وتأتي - وسط بالفتح - اسماً لما بين طرفي الشيء وهو منه، ومن ذلك: قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدّار. (ابن فارس: 7:430)

ج - وتأتي - بالفتح أيضاً - صفة، بمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره: كوسط المرعى خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار.

د - وتأتي وسط - بالفتح - بمعنى عدل، قال ابن فارس: وسط: بناء صحيح يدلّ على العدل، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه.

هـ - وتأتي (وسط) بالفتح - أيضاً - للشيء بين الجيد والرديء. قال الجوهري: ويقال: شيء وسط: أي بين الجيد والرديء. وقال صاحب المصباح المنير: يُقال شيء وسط، أي بين الجيد والرديء.

ز - ويقال (وسط) لما له طرفان مذمومان، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الدّم، وهو الغالب. قال الراغب: وتارة يُقال لما له طرفان مذمومان.

قال محمد باكريم، وكيفما تصرفت هذه اللفظة نجدها لا تخرج في معناها عن معاني العدل والفضل والخيرية، والنصف والبيئية، والتوسط بين الطرفين، فتقول: (وسوطاً): بمعنى المتوسط المعتدل. وقال فريد عبد القادر: استقرّ عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة (وسط) أرادوا معاني الخير، والعدل، والنصفة، والجودة، والرّفعة، والمكانة العلية.

وأختم ما قيل في معنى الوسط بهذا الكلام للشيخ ابن عاشور، حيث قال أثناء تفسيره لقوله - تعالى -: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (البقرة: 143). والوسط: اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به، أو للشيء الواقع بين أشياء محيطة به، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرقاً، ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يُحيط به، أخذ فيه معنى الصّيانة والعزّة؛ طبعاً: كوسط الوادي لا تصل إليه الرّعاة والدّواب إلا بعد أكل ما في الجوانب، فيبقى كثير العشب والكأ، ووضعاً: كوسط المملكة يجعل محلّ قاعدتها، ووسط المدينة يجعل محلّ قصبتها؛ لأن المكان الوسط لا يصل إليه العدو بسهولة، وكواسطة العقد لأنفس لؤلؤة فيه. وأمّا إطلاق الوسط على الصّفة الواقعة عدلاً بين خلقين ذميين فيهما إفراط وتقريط، كالشّجاعة بين الجبن والتهوّر، والكرم بين الشّحّ والسرف، والعدالة بين الرّحمة والقساوة، فذلك روى حديث: خير الأمور أوسطها. وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عُرفيّتين. ومن خلال ما سبق اتّضح لنا المعنى اللغوي لكلمة (وسط)، وما تصرف منها، وأنها تنول إلى معانٍ متقاربة.

ومن جملة ما سبق بيانه نستطيع أن نستخلص تعريفاً اصطلاحياً خاصاً للوسطية، بأن الوسطية هي: مؤهل الأمة الإسلامية من: العدالة، والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة

الحجة عليهم. ولا يلزم لكل ما يعتبر وسطاً في الاصطلاح أن يكون له طرفان، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظلم، والصدق وسط ولا يقابله إلا الكذب.

٣. مبادئ الوسطية وخصائصها

للموسطية مبادئ وخصائص تميزها عن غيرها. إنَّ تحديد هذه المبادئ مهمة أساسية في مثل هذا البحث، حتى لا تكون الوسطية مجالا لأصحاب الأهواء وأرباب الشهوات. ذلك أنَّ الوسطية مرتبة عزيزة المنال، غالية الثمن. كيف لا وهي سمة هذه الأمة، ومحور تميزها بين الأمم؟! جعلها الله خاصية من خصائصها، تكررًا منه وفضلًا (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد: 21).
إنَّ أهمَّ مبادئ الوسطية ما يلي:

١.٣. مبادئ الوسطية

إن الوسطية ليست محصورةً في جزئية من الجزئيات، بل ولا في ركن من الأركان! وإنما هي منهج متكامل شامل، لا ينفصل بعضه عن بعض، فالإسلام كله وسط، ولذلك فهذه الأمة هي أمة الوسط: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (البقرة: 143). والذين يغفلون عن هذه الحقيقة يغفلون عن جوهر القرآن ومقاصده. ومن هذا المنطلق جاء القرآن الكريم مقررًا لمنهج الوسطية في أبواب العبادات، والاعتقاد، والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات.

أولاً: الاعتقاد

لقد جاء تقرير القرآن لمنهج الوسطية في العقيدة شاملاً ومتكاملاً، وذلك أنَّ العقيدة هي الأساس، وعليها البناء، فأَيُّ انحراف فيها يسري على ما سواها ويؤثر فيه. والعقيدة من أوسع الأبواب وأكملها، حيث تشتمل على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره، وشره.

وفي إطار تقرير منهج الوسطية في العقيدة يأتي قوله - تعالى - (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) (البقرة: 130). وملة إبراهيم، عليه السلام، هي الملة الحنيفية السمحة لا إفراط فيها ولا تفريط.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأَيُّ سفه أعظم من هذا؟! قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قوله

- تعالى -: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
(آل عمران: 67)

ثانيًا: التشريع والتكليف

سبق أن ذكرت أن ملامح الوسطية اليسر، ورفع الحرج، وهذا أمر قرّره القرآن في أكثر من موضع، كقوله - تعالى -: (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (الحج: 78). وقوله: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: 185). وقوله: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: 286) وما ذكرته هناك متّصل بما سأذكره هنا في تقرير هذه القضية.

ومما يؤكّد ويقرّر منهج الوسطية في التشريع والتكليف الآيات التي وردت برفع الحرج، كقوله - تعالى -: (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) (المائدة: 6). وقوله: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (الحج: 8). وقوله: (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) (الأحزاب: 38). ومثل ذلك الآيات التي جاءت تنفي الحرج عن فئة معينة، كقوله - تعالى - في سورتي النور والفتح: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) (الفتح: 17)

ثالثًا: العبادة.

جاءت الآيات صريحة في رسم منهج الوسطية في العبادة في غاية البيان والوضوح، فالآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده، وتصف عبادته بالاستقامة، وبأن عبادته هي الكلمة السواء، وغير ذلك مما يدل على أن عبادته هي الطريق الوسط السالم من الانحراف والضلال: قال - تعالى -: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) (آل عمران: 64).

إذا تأملنا الآيات التي جاءت في بعض أنواع العبادة في معناها الخاص كالصلاة والدعاء وغيرهما، فنجد فيها أمرًا بالتزام منهج الوسط، ونهيًا عن الإضاعة أو الرهينة، وهو ما يمثل الإفراط والتفريط.

رابعًا: الشهادة والحكم.

إذا كان العدل يعني الوسط، كما تقرّر، فإن أمر الله بالعدل في الشهادة والحكم هو أمر وإقرار لمنهج الوسطية، ويتّضح ذلك - تفصيلا - من خلال ما سيأتي - إن شاء الله -:

1- قال - تعالى - في سورة النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء: 135).

ولنتأمل ما قاله الطبري في تفسيره للآية، فإننا نجد الدلالة البينة في هذه الآية على منهج العدل والوسط، والتّحذير من الحيف والجور واتباع الهوى.

2- وهذا التفسير للآية واضح الدلالة على منهج الوسطية في الشهادة والحكم، ومثل ذلك تفسير ابن كثير، حيث قال في قوله - تعالى -: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) (المائدة: 8). أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: (اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: 8)

خامساً: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

نالت الأمة الخيرية لأسباب من أهمها قيامها بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واستمرار الخيرية مرهون بالأسباب التي نالت بها هذه الدرجة الرفيعة. والواقع المشاهد استمرار للواقع الماضي في أنّ هناك فئات كثيرة ضلّت في هذا الباب، فهناك كثيرون جدّاً تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو قصّروا فيها تقصيراً شديداً، وهؤلاء سلكوا سبيل التّقریط، وآخرون - وهم أقل من أولئك - قاموا بالأمر بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولكنهم لم يعرفوا مراتبه ودرجاته وحدوده، أو لم يلتزموا بها، فوقع كثير منهم في الغلو والإفراط.

سادساً: الجهاد في سبيل الله.

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام وهو ماضٍ إلى أن تقوم الساعة . ولا عزّة للأمة ولا فخر ولا سؤدد إلا بإقامة هذا الركن العظيم. وما تركت أمة الجهاد في سبيل الله إلا ذلّت وضعفت، وهانت على الله ومن ثمّ على خلقه.

وذلكم أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وركن من أركانه، وهو ماضٍ إلى أن يأتي أمر الله، وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ذلّوا، وضعفوا، وسلط الله عليهم عدوّهم. والجهاد له شروطه وضوابطه، وأسبابه وموانعه، فإذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع، وتحقّقت الشروط وجب أن يُنادي المُنَادِي حيّ على الجهاد، ووجب على القادرين أن يستجيبوا للنداء، فرض عين أو فرض كفاية.

وهذا هو المنهج الوسط الذي جاءت الآيات الكثيرة تدعو إليه وتأمّر به وتحث عليه، وجاءت السنة شارحة ومبيّنة، ومفصّلة لأحكام الجهاد، كما جاءت مبينة أحكام السلم والمهادنة والمعاهدات.

سابعاً: المعاملة والأخلاق.

أما المعاملة فهي قرينة الأخلاق، حيث إن معاملة المرء نتاج طبيعي لأخلاقه، ولقد رسم القرآن المنهج السوي لما يجب أن تكون عليه أخلاق المسلم ومعاملاته. وهذا الباب يسوده الغلو والجفاء، ويندر فيه المنهج الوسط، ولذلك فقد عني القرآن الكريم به عناية خاصة، وجاءت الآيات تترى توضح هذا المنهج، وتدعو إليه، وتربي الأمة عليه، وتحذر مما يضاده غلوًا أو جفاءً، إفراطًا أو تفريطًا. سُئِلَتْ عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله، فقالت: "كان خلقه القرآن"، وقد أثنى الله على رسوله، فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4).

ثامناً: كسب المال وإنفاقه.

قضية المال من القضايا الكبرى التي عني بها الإسلام كسبًا، وحفظًا، وإنفاقًا. وذلك أن المال عصب الحياة، وهو بالنسبة للحياة الدنيا كالماء الذي يمشي في غصون الشجر، وكالدماغ التي تجري في عروق البشر. ولقد سلك الناس - ولا يزالون - مسالك شتى في هذا المال، كسبًا، وجمعًا، وإنفاقًا. والكثرة الكاثرة، والغالبية العظمى ضلوا الطريق، وحادوا عن سواء السبيل. ولذلك جاء القرآن الكريم مبيّنًا خطورة هذا الانحراف، وهاديًا إلى الصراط المستقيم. وفي ضوء المنهج الذي أشرت إليه مرارًا، سأذكر بعض ما ورد في كتاب الله من آيات تبين خطوط الانحراف، وطريق الوسط الذي يجب أن يسلكه المؤمنون. في جمع المال وحبه. وردت عدة آيات تبين خطورة الانهماك في جمع المال والمبالغة، والإفراط في حبه، وقد وردت هذه الآيات في سياق الذم لذلك. ومن تلك الآيات: قال - تعالى -: (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) (الفجر: 19، 20).

تاسعاً: مطالب النفس وشهواتها.

يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشريّة، وقبوله بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبثها وقمعها، إننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من الصراع بين شطري النفس البشريّة، بين نوازع الشهوة واللذة، وأشواق الارتفاع والتسامي، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال (سيد قطب: 373/1). هذه هي الوسطية التي رسمها القرآن الكريم فيما يتعلق بمطالب النفس وشهواتها. وهو بهذا يمثل الواقعية والحكمة، ويوازن بين نوازع النفس البشريّة وحقائق العبودية وتكاليفها.

٢.٣. خصائص الوسطية

أولاً: الخيريّة.

قال الله - تعالى - في سورة البقرة: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (البقرة: 143) وقال في سورة آل عمران: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران: 110) وقد ذكرت أن من معاني الوسطية الخيرية، قال ابن كثير - رحمه الله -: والوسط هنا: الخيار والأجود، كما يقال لقريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها (ابن كثير: 190/1). قال الطبري (44/4) في تفسير آية الخيرية، معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذ كنتم بهذه الشروط التي وصفهم - جلّ ثناؤه - بها، فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، أخرجوا للناس في زمانكم .

قال الأستاذ سيد قطب: فهي خير أمة أخرجت للناس، لا عن مجاملة، ولا عن محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف، - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: (نَحْنُ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ وَأَحَبُّوهُ) (المائدة: 18). كلا إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يُحدّد المعروف والمنكر (في ظلال القرآن: 447/4).

ثانيًا: الاستقامة

الوسطية استقامة، ولو لم تكن على نهج الاستقامة لكانت انحرافًا، والانحراف إمّا إفراط أو تفريط، وذلك ضد الوسطية ومباين لها، كما سبق بيان ذلك. ومن هنا فإن من ملامح الوسطية، بل وضوابطها الاستقامة، ولذلك فمن ادّعى الوسطية مع خروجه عن الاستقامة، فهذه ليست الوسطية الشرعية في شيء، بل هي وسطية نسبية غير التي نتحدث عنها.

فقد وردت آيات كثيرة تأمر بالاستقامة وتحث عليها، فالله - جلّ وعلا - يقول لرسوله، (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) (هود: 112). وفي سورة الشورى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) (الشورى: 15).

قال الراغب في تعريف الاستقامة: استقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم نحو: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) (فصلت: 30). وقال ابن القيم في مدارج السالكين: الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء (104/2).

وقال القرطبي: الاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال (107/9).

وقال ابن القيم - أيضًا -: فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

ثم قال: فالاستقامة: كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصّدق، والوفاء بالعهد (105/2). وهذه المعاني متقاربة، ويفسر بعضها بعضاً.

ثالثاً: اليسر ورفع الحرج

إنّ من أول ما يتبادر إلى أذهاننا عندما ننطق كلمة (الوسطية) هو معنى اليسر والتيسير، ورفع الحرج، وهذا الفهم صحيح فإنّ من أبرز سمات الوسطية: التيسير ورفع الحرج. وقد تقرّر فيما مضى أنّ هذا الدين هو دين (الوسط)، فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط. واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط وبين التفريط، وبين التشدد والتنعّط وبين الإهمال والتضييع.

قال الدكتور/ صالح بن حميد (ص: 13): رفع الحرج والسّماحة والسّهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنعّط والتشديد حرج من جانب عسر التكليف، والتفريط، والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع. قال - تعالى -: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (البقرة: 143). فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسّماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل.

وردت آيات كثيرة جداً تُبين أنّ هذا الدين دين يسر، وأنّ الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشقّ عليها، حيث لم يكلفها إلا وسعها. كما جاء في قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: 185). وقال - سبحانه -: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) (النساء: 28).

رابعاً: البينية

البينية من لوازم وصفات الوسطية، وإنّ إطلاق لفظ البينية يدلّ على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء، وقد يكون ذلك حساً أو معنى. وعندما نقول: إنّ (الوسطية) لا بدّ أن تتّصف بالبينية، فإنّنا لا نعني مجرد البينية الظرفية، بل إنّ الأمر أعمق من ذلك، حيث إنّ هذه الكلمة تعطي مدلولاً عملياً على أنّ هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبُعد عن الغلو والتطرف أو الإفراط والتفريط.

وبهذا تكون البينية صفة مدح، لا مجرد ظرف عابر. ومن هذا التفسير جاءت علاقة البينية بالوسطية، وقد رأيت جمهوراً من العلماء ربطوا بين الوسطية والبينية، ولا غرابة في ذلك، فإنّ لهذا أصلاً في اللغة والاشتقاق، كما سبق بيان ذلك، وهو المتبادر إلى الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة.

خامساً: العدل والحكمة

وإذا كان الوسط شيء بين شيئين، فإنه يلزم لأن يكون وسطاً شرعياً أن يكون عدلاً، لأنه إذا لم يكن كذلك مال وانحرف إلى أحد الطرفين، إمّا إلى الإفراط، وإمّا إلى التفريط، وهذا خروج عن حقيقة العدل، ومن ثمّ خروج عن الوسط، ولذلك جاءت صفة الحكمة ملمحاً من ملامح الوسطية، وبيان هذا: أنّ التوسّط هو توسّط معنوي، وتحديد هذا التوسّط يكون بمراعاة جميع الأطراف، تحقيقاً للمصالح، ودرءاً للمفاسد، وهذه هي الحكمة الشرعيّة. وبعبارة أخرى: فإنّ الوسطية أمر نسبي، يخضع تحديده لعوامل عدّة لا بدّ من مراعاتها، ولا يتحقّق ذلك إلاّ باتقان الحكمة.

ومن أجل إلقاء مزيد من الضوء على هذه الحقيقة أذكر بعض ما ورد في الحكمة من أقوال المفسّرين، وتعريفات العلماء. قال عبد الرحمن بن سعدي: الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسدّدة، والألباب الرزينة، وإصابة الصّواب في الأقوال والأفعال، ثم قال: وجميع الأمور لا تصلح إلاّ بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محلّ الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام. (تفسير ابن سعدي : 332/1).

٤. الخاتمة

في آخر المقالة فإنّي أجد من المناسب أن أخصّ ما توصلت إليه في هذه الرسالة فيما يلي: أولاً: والوسط اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به، أو للشيء الواقع بين أشياء مُحيطَة به، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عُرْفًا، ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يحيط به أخذ فيه معنى الصيانة والعزة. فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عُرْفًا، فأطلقوه على الخيار النفيس كناية. أمّا إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلاً بين خلقين ذميين فيهما إفراط وتفريط، فذلك مجاز. وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عرفيتين.

ثانياً: للوسطية ملامح وسمات تحف بها وتميزها عن غيرها، بمجموع تلك الملامح لا بأحاديها. وقد توصلت إلى تحديد أهم تلك السمات واللامح باستقراء القرآن الكريم، وما ورد في وسطية هذه الأمة بين الأمم، وكذلك ما كتبه بعض الباحثين في ضوء الكتاب والسنة. إن تحديد تلك الملامح مهمة أساسية، حتى لا تكون الوسطية مجالاً لأصحاب الأهواء وأرباب الشهوات. وقد توصلت إلى أن أهم سمات الوسطية ما يلي: الخيرية و الاستقامة و اليسر ورفع الحرج و البينية و العدل والحكمة. وكل سمة من هذه السمات يندرج تحتها بعض أحاديها. وأشارت إلى أن هذه الملامح تصلح ضابطاً لتحديد الوسطية ومعرفتها، بما يجيب على السؤال الذي يرد في الأذهان.

ثالثاً: ومن خلال هذه الأبواب اتضح لنا أن الوسطية منهج حياة وتشريع متكامل، لا يقبل التجزئة والتفريق، وأن أدلة الوسطية ليست هي التي ورد فيها لفظ (الوسط) فقط، بل أعم من ذلك وأشمل، والآيات التي جاءت تدل دلالة صريحة على منهج الوسطية تربو على العشرات، إذ هي في عداد المئات.

قائمة المراجع

- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. (1399). معجم مقاييس اللغة. دار الفكر. بيروت
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين الأنصاري. (1431). لسان العرب. الطبعة الثالثة. دار صدر، بيروت
- إبن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي. (1999). تفسير القرآن العظيم . الطبعة الثانية. دار طيبة.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. (1996). مدارج السالكين. الطبعة الثالثة. دار الكتاب العربي، بيروت.
- أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القرشي النيسابوري. (1955). صحيح مسلم. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه. (1433). طبعة السلطانية مصر.
- حبيب الله، صالح الصيني. (1441). وزارة الأوقاف السعودية.
- رضا، محمد رشيد بن علي. (1431). تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم). الهبة المصرية العامة للكتاب.
- العمر، ناصر سليمان. (1432). الوسطية في ضوء القرآن الكريم. الناشر وزارة الأوقاف السعودية
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر. (2001). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبعة الأولى. دار الهجرة للطباعة.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. (1432). الجامع لأحكام القرآن. دار الكتب المصري القاهرة.

Muchtar, M. I. (2013). "UMMATAN WASATHAN" DALAM PERSPEKTIF TAFSIR AL-TABARIY. *PILAR*, 4(2)..